الفصل الخامس

جوانب من الأوجه الحضارية في وادي النيل

المبحث الاول: الديانة

عبد المصريون القدماء شأنهم شأن أغلب أقوام العالم القديم مظاهر الطبيعة المختلفة وجسدوها بهيئة آلهة متعددة ، وهو ما يطلق عليه بمبدأ (تعدد الآلهة) ، ولم يصل تطور الديانة في حضارة وادي النيل الى فكرة التوحيد إلا في عهد الفرعون اخناتون الذي اتخذ عبادة الإله آتون كديانة رسمية للبلاد ولكنها لم تعمر من بعده .

واتسمت الديانة المصرية بصفة اخرى وهي مايطلق عليه مبدأ (التفريد) وهو أسلوب ابتدعه الكهنة ملخصه دمج أكثر من إله واحد في تسمية واحدة عن طريق التوفيق بين ميزات ووظائف هذه الآلهة ومطابقتها مع بعضها مثل الاله (آمون - رع) الذي يدمج وظائف الإله آمون مع وظائف الاله رع ووصل هذا المبدأ الى درجة دمج أكثر من ثلاثة آلهة ، وربما كان الغرض من ذلك هو توسيع سلطة الكهنة وقدرتهم على السيطرة على طبقات مختلفة من الشعب وفي أماكن متعددة .

أما المبدأ الثالث الذي اتسمت به الديانة المصرية هو (التشبيه) اي تشبيه الآلهة المعبودة بصفات بشرية من الناحية الروحية والجسمية ولكنها تختلف عن البشر بأشياء مهمة هي القدرة وامكانية تقرير مصير الطبيعة والانسان بالاضافة الى امتيازها بصفة هي الخلود .

إن هذه الآلهة المجسدة من قوى الطبيعة أُشتق أصلها من ثلاثة مصادر رئيسية هي القوى المستمدة من (الشمس) والقوى المستمدة من (الارض) وتلك المستمدة من (الحيوانات) وان هذه القوى أو الآلهة كثيراً ما تتداخل في مظاهرها ووظائفها ، وكمثال على النوع الاول هو عبادة (الإله الشمس) بأشكال وأسماء متعددة فقد نشأت عبادته في مدينة الشمس أون (هليوبوليس) وكان من اسماءه التي اشتهر بها رع وآتوم وخفرع وعد المصريون (الإله الشمس) الإله الخاص بالعدل .

أما (الأرض) فقد عبدها المصريون بهيئة إله ذكر وكان هذا الإله من آلهتهم العظيمة ودعوه باسم جيب وباسم فتاح وكان هذا الاخير بحسب لاهوت الخليقة الخاص بمدينة منفس هو الاله الخالق ، ومن الآلهة المهمة المتعلقة بهذه القوى هو الاله الشهير اوزيرس الذي عُيّن ملك عالم الاموات وقاضي الأموات ، ويمثل هذا الاله بوجه عام الغلة والخضار وهو مثل الإله البابلي تموز يظهر ويموت مع الغلة .

وأما (الحيوانات) التي اتخذت كآلهة مجسدة في مصر القديمة فقد تعددت انواعها مثل فرس النهر، التمساح ، الأسد ، الثور ، الكبش ، القرد ، الكلب ، الذئب ، ابن آوى ، الصقر ، النسر ، الحمامة والجعلان.. الخ ، ومنشأ تقديس (الحيوانات) وعبادتها هو نتيجة أثرها العظيم في حياة الناس الاقتصادية ، وأهم مظهر لهذه العبادة في ديانة مصر هو تقديس العجول وعبادتها ومن أهمها العجل الشهير آبيس والذي هو تجسيد للاله (فتاح - اوزيرس) في منفس مركز عبادته ، وهناك الاهه مهمة هي هاثور التي تصورها المصريون القدماء بهيئة بقرة وانها الالهة الخاصة بالجو وهي تشبه الإلهة عشتار البابلية أيضاً في كونها إلهة الحب .

لقد نظر المصريون القدماء الى الآلهة كما ينظرون الى انسان قوي جليل يُجمع الكل على مهابته واحترامه فشيدوا لها معابد فخمة وقدموا لها الهدايا والنذور، وكانت المعابد تديرها طبقة متنفذة من الكهنة وكان الناس يسعون لينالوا رضا الآلهة كي تبارك لهم اعمالهم وتحقق أمانيهم ، وابتدع الكهنة جملة طقوس وعقائد دينية خاصة بالعبادة . ولقد لعبت الديانة المصرية دوراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع المصري القديم لما كان لها من تاثير على الشعب عن طريق هؤلاء الكهنة . وتبلورت جراء هذه الديانة أفكارا خاصة بشعب وادي النيل هي فكرة تأليه الملك ومعتقداتهم حول العالم الآخر.

1- تأليه الملك (الفرعون) :

كان الملك رأس المجتمع والدولة في مصر القديمة في جميع ادوار تاريخها ، ونظام الحكم الملكي ظهر في وادي النيل منذ نهاية عصور ما قبل السلالات ، وتقول المآثر المصرية ان اول ملك في مصر هو الذي كان ملكاً على أول سلالة في تاريخ البلاد أما ما قبل هذا العهد فتروي هذه المآثر أن الحكام كانوا نوعاً من الأرواح الشبيهة بالآلهة سبقه عهد آخر كانت الآلهة نفسها هي التي تحكم البلاد ، وكان أول ملك في الكون وفي مصر هو الاله الخالق (آتوم - رع) حيث صار ملكاً على كل الخليقة التي أوجدها وهذا يعني ان الملوكية ظهرت منذ الخليقة ، وآخر إله حكم مصر هو الاله اوزيرس الذي ترك الحكم لابنه الاله حورس ومن هذا الاله انحدر كل ملوك مصر وأولهم الملك مينا حاكم اول سلالة ، وعلى هذا فان الذي يتقلد الملوكية من البشر كان إلها نفسه .

وتتضمن فكرة إلوهية الفرعون شمول جيلين من الفراعنة فالملك الميت يصير بمثابة الإله اوزيرس أما الملك الذي يخلف الميت فيصير الإله حورس ابن اوزيرس الذي أعقب أباه وصار ملكاً ، كما إن الملك الجديد يتجسد ايضا بالاله الشمس رع او يصير ابنه .

وقد صار شخص الملك بسبب الوهيته مقدسا بالنسبة إلى البشر الآخرين من ناحية الاقتراب منه ومخاطبته فكانوا لاينطقون باسمه بل يشيرون اليه بصفات التعظيم كـ (أبن رع) و(صاحب الجلاله) ثم صاروا يشيرون اليه في عهد الامبراطورية باسم (الفرعون) أي (البيت العظيم) .

واستتبع إلوهية الفرعون أيضا أمورا أخرى مهمة في حياة الدولة المصرية ونظامها وفي حياة الشعب ، فكان للفرعون بصفته إلهاَ مطلق الحكم والسيطرة في البلاد ( ولو بشكل نظري ) يملك جميع البلاد وما فيها ، والملكية الفردية غير ممكنة إلا نتيجة منح الملك اياها للاشخاص الذين يتصرفون بها ، والملك مصدر الحكم والسلطة والعدالة كما ان الشريعة تصدر عن ارادة الفرعون ومشيئته . والملك بصفته اله لا يستطيع المجتمع ان يحاسبه أو يثور ضده من الوجهة النظرية .